خواطر فى كتاب الله :

ضريبة الانسانية

للأستاذ محمد عبد الله السمان

إن للانسانية ضريبة على كل فرد ، ولا يكاد يوجد فرد واحد يعجز عن تأديتها ؛ اللهم إلا من ملأت الأنانية نفسه ، واستولت الأثرة على قلبه ، وهذا حرى بأن يحذف من المجتمع ، وتلفظه الإنسانية لفظة مهينة لا كرامة فيها !

والقرآن الكريم حين يشعر المرء بهذه الضريبة ، وأنها واجب تحتمه المروءة ، إنما يهدف إلى غرضين جليلين ساميين : أما الأول ، فإثبات وجوده ، وإظهار كيانه ، وطبعه بطابع الخير والبر والتعاون ، وتجنيده فى خدمة الإنسانية ، وإعداد نفسه للمعروف كلما ناداه الواجب واستصرخته المروءة وأما الثانى ، فدفع المرء إلى استغلال أوقات الفراغ فيما يفيد المجتمع ويسعده ، واستنفادها فى تدعيم أسس الخير التى يقوم عليها بناء كل أمة تبغى العزة فى حياتها . .

وأولى أنواع هذه الضريبة بالإشادة هو فعل الخير ، لأن الإنسانية فى كل زمان ومكان متعطشة إلى الخير الذى يشد أزرها ويؤيدها فى نضالها وكفاحها ، ويضفى على وسائلها فى الحياة إشراقا يزيدها رفعة وسموا ، ويكلل مساعاها بالنجاح . .

« ولكل وجهة هو موليها ، فاستبقوا الخيرات . . . ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات . . — فمن تطوع خيرا فهو خير له . . — ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم ... ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ، ذلك هو الفضل الكبير — يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم ، وافعلوا الخير لعلكم تفلحون — وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم »

والإحسان نوع من ضريبة الإنسانية جدير بكل تقدير ، لأن فيه تدعيما للاخاء الإنسانى ، وبه تتقارب القلوب وتتآلف ، وتترابط النفوس وتتصافى ، والإحسان إما خير يفعله الإنسان بدافع من شعوره الإنسانى ، وإحساسه الأخوى ، وإما عفو عن شرور الأشرار ، ومقابلة إساءة المسيئين بالإحسان ، وصبر على أذى المتعنتين من الظلمة والطغاة :

« بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن ، فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . . . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون — إن الله يأمر بالعدل والإحسان . . . وقولوا للناس حسنا — للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة — ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن — الذين ينفقون فى السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين — أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ، ويدرءون بالحسنة السيئة — والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، ويدرءون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار »

والبر من أنواع الضريبة الإنسانية التى لها قدرها ولا غرو . فهو جماع أنواع الخير ، وفيه تتجلى آيات الرحمة والإخاء والوفاء . ولا يكون المرء معترفا بضريبة الإنسانية مؤديا لها إلا إذا جند نفسه للبر جهد المستطاع . وليس بعجيب بعد هذا أن ترى كتاب الله تعالى يدفع المسلمين إلى التعاون على البر ، ليعيشوا فى ظلال الأخوة الصادقة . وقد أشار القرآن الكريم إلى البر وإلى أن سبله جميعها تلتقى عند هدف واحد هو الخير ، وخلاصة هذه السبل إيمان كامل ، ومعروف دائم ، وطاعة خالصة ، ووفاء بالعهود ، وصبر على الكاره :

« وتعاونوا على البر والتقوى ... — ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ، والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون »

والمرء حين يؤمن بأن هناك نعما عظمى أسبغها عليه الخالق

جل وعلا ، يجب عليه أن يؤدى شكر هذه النعم العظمى له ، وليس هناك أعظم شكرا لله من أن تدفع ضريبتك الإنسانية فى حياتك.

ولقد ندد القرآن بالإنسان المارق ، المتنمر فى نعم الله ، وهو فى نفس الوقت مصر على الكفران بها ، وعدم الاعتراف بما تفرضه الإنسانية عليه من ضريبة ، فلم يحطم العقبة ، ليفك رقبة ويحررها ويطعم اليتيم والمسكين فى يوم ذى مسغبة ، ويكون من الذين يتواصون بالمرحمة ...

« لقد خلقنا الإنسان فى كبد — أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ؟ يقول أهلكت مالا لبدا ، أيحسب أن لم يره أحد ؟ ألم نجعل له عينين ، ولسانا وشفتين ، وهديناه النجدين ، فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة ، أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيما ذا مقربة ، أو مسكينا ذا متربة ، ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر ، وتواصوا بالمرحمة ، أولئك أصحاب الميمنة ، والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشئمة ، عليهم نار مؤصدة »

ولقد قص علينا القرآن الكريم قصة سبأ ، أولئك الذين غمرهم الله بنعمه فما شكروه ، ووهب لهم حياة طيبة فهربوا من ضريبة الإنسانية ، وكان جزاؤهم ، أن سلبهم الله النعم ، وأبدلهم بحياتهم الطيبة حياة تعسة ، وجعلهم عبرة وعظة للأجيال من بعدهم :

« لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور. فأعرضوا ، فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشئ من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازى إلا الكفور ؟ وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة ، وقدرنا فيها السير ، سيروا فيها ليالى وأياما آمنين ، فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم ، فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق .. إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور »

وهناك إنسان يعيش فى حياته كما تعيش الأنعام ، يأكل ويشرب ويتمتع وكفى ، ولا يشعر بوجوده كعضو فى المجتمع يجب أن يؤدى نحوه واجبا ، ويجهل أن للإنسانية ضريبة على كل فرد منتسب إليها ، وهذه الضريبة لا يعجز عنها غنى أو فقير ، فالغنى يستطيع أن يبذل من ماله فى سبيل الخير ، والفقير يستطيع أن يبذل شيئا من وقته ، فيحث الأغنياء على التصدق ؛ ويدفع بهم إلى طريق البر ، ويأمر بالمعروف ما وسعه الجهد ، ويعمل إن استطاع فى كل لحظة للاصلاح بين الناس . وقد سد القرآن الكريم أبواب الأعذار أمام العاجز عن أن يؤدى الضريبة من ماله ، وفتح له طرقا من الخير يستطيع أن يسلكها دون احتياج إلى شئ من المال ، واعتبر المتقاعد عن سلوك هذه الطرق محذوفا من المجتمع ، ومن المهملين الذين لا خير فى وجودهم ، ولا فائدة من حياتهم :

« لا خير فى كثير من نجواهم ، إلا من أمر بصدقة ، أو معروف ، أو إصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما » .

محمد عبد الله السمان

للمؤلفين وناشرى الكتب القديمة

شركة مطبعة مصر فى خدمتكم

تؤدى التسهيلات المجزية فى إخراج كتبكم . اتصلوا بها

تجدوا أجل طبع وأحسن اتفاقات